

البناء الفني لدعاء الإمام علي "ع" عند الوفاة

م.م أحمد جاسم ثاني

جامعة البصرة/ كلية التربية

قسّم أمير المؤمنين "ع" العباد على ثلاثة أصناف في قوله: (إن قوماً عبدوا الله رغبة فتلك عبادة التجار، وإن قوماً عبدوا الله رهبة فتلك عبادة العبيد، وإن قوماً عبدوا الله شكراً فتلك عبادة الأحرار)، واختار من بينها عبادة الأحرار الذين عبدوا الله شكراً؛ لأنهم وجدوه أهلاً لذلك: (إلهي ما عبدتك خوفاً من عقابك ولا رغبةً في ثوابك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك).

ومنذ الولادة وحتى الشهادة كان علي "ع" مع الله تعالى؛ فالمولد في بيت الله الكعبة المشرفة، والشهادة في بيت الله تعالى ومحراب العبادة، ولم يقسم بغير (رب الكعبة) حينما ضربه أشقى الآخرين؛ فقال: (فزت وربّ الكعبة)، ولم يترك عبادته ودعائه لربه الكريم حتى في هذه الليلة العصيبة، وكان دعاؤه في الليلة التي ضرب فيها وعند وفاته:

(اللهم أكفنا عدوك الرجيم، اللهم إني أشهدك أنك لا إله إلا أنت، وأنت الواحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن لك كفواً أحد، فلك الحمد عدد نعمائك لديّ، وإحسانك عندي، فاغفر لي وارحمني وأنت خير الراحمين. ولم يزل يقول: لا إله إلا الله، وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك ورسولك، عدة لهذا الموقف وما بعده من المواقف، اللهم أجز محمداً عنا خيراً، واجز محمداً عنا خير الجزاء وبلغه منا أفضل السلام، اللهم ألحقني به ولا تحل بيني وبينه، إنك سميع الدعاء، رؤوف رحيم. ثم نظر إلى أهل بيته فقال: حفظكم الله من أهل بيت وحفظ فيكم نبيكم، وأستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام. ثم لم يزل يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، حتى قبض، صلوات الله عليه¹.

فمن الناحية الفنية؛ يلاحظ أن هذا النص الدعائي اتسم بلغة علمية تخلو من الصور الفنية والتشبيهية وغيرها، كما أنه نص قصير نسبياً إذا ما قيس بالأدعية الأخرى المأثورة عن أمير المؤمنين "ع" كدعاء الصباح مثلاً، وذلك لأن الموقف هو موقف جرح وألم ومنازعة الموت، مما لا يسمح بإنشاء مثل تلك النصوص الأدبية المطولة.

ويستهل الدعاء بطلب الاستكفاء من الشيطان الرجيم، الذي يحضر عند الإنسان ساعة الوفاة فيوسوس له، ويحاول أن يعدل به من توحيد الله إلى الشرك به تعالى؛ لذلك قال الإمام "ع" (اللهم اكفنا) ولم يقل (اللهم أعذنا)؛ لأن الاستكفاء فيه التعويذ وزيادة، وقد كتى عنه ب (العدو الرجيم) ولم يصرح باسمه؛ وذلك مبالغة في ذمه، كما جاء بوصف العدو مسنداً إلى ضمير الخطاب (الكاف)، ليبين أن الشيطان هو عدو الله تعالى قبل أن يكون عدواً للناس.

ومن الناحية الفكرية فإن هذا الدعاء دار حول موضوع ذي ثلاثة محاور؛ الشهادة بوحدانية الله تعالى، ورسالة النبي الأكرم محمد "ص"، ومنزلة أهل البيت "ع"، وهي من الأمور المهمة التي يحتاج إليها الإنسان المحتضر الذي يرجو رحمة ربه: (عدة لهذا الموقف وما بعده من المواقف)، وتبعاً لذلك فقد تكررت عبارة الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ثلاث مرات في النص، بل إن الرواية تقول: ولم يزل يكررها حتى قُبض "ع". كما جاء الاقتباس القرآني من سورة التوحيد مؤكداً لذلك: (... وأنتك الواحد الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن لك كفواً أحد).

ومن الطبيعي أن يتدرج النص بعد ذلك بحمد الله تعالى وطلب مغفرته ورحمته: (فلك الحمد عدد نعمائك لديّ، وإحسانك عندي، فاغفر لي وارحمني وأنت خير الراحمين)، ثم ينتقل إلى الدعاء لرسول الله "ص" الذي هو نفسه بنص القرآن الكريم، ويطلب من الله تعالى أن يجعله معه في الآخرة كما كان معه في الدنيا: (اللهم اجز

محمداً عنا خيراً، واجز محمداً عنا خير الجزاء وبلغه منا أفضل السلام، اللهم ألحقني به ولا تحل بيني وبينه، إنك سميع الدعاء، رؤوف رحيم). ويختتم النص بالدعاء لأهل بيت النبي "ع" بالحفظ الذي يؤدي إلى حفظ دين الله وحفظ جهد النبوة وأعباء الرسالة، ثم وداع الأحبة ومفارقتهم والسلام عليهم: (حفظكم الله من أهل بيت وحفظ فيكم نبيكم، وأستودعكم الله وأقرأ عليكم السلام).

وعلى الرغم من قصر هذا النص إلا أنه احتوى على بناء متماسك الأجزاء، وقد أدت وحدة الموضوع فيه دوراً مهماً، إذ كان التركيز فيه على الشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، وذلك بتكرارهما في بداية النص ووسطه وآخره.

^١ - الصحيفة العلوية المباركة الجامعة لأدعية الإمام علي بن أبي طالب "ع"، محمد باقر الموحّد الأبطحي: